الفصل الثالث

الخصومة حول « المثل السائر »

(١)

بين ابن أبي الحديد وابن الأثير

قام ابن الاثير بتأليف كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) بعد سنة ٦١٧ هجرية ، وذلك بعد استقراره في الموصل ، تعرض فيه لكل ما يتعلق بالأدب والأديب ، ونشر خلاله الشيء الكثير من إنشائه ، عارضاً إياه في كثير من الزهو والإعجاب بما يقول ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، فمن تعقيباته قوله بعد الإشادة بشرحه للأبيات « وهن من الحسن على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها[١] » . أو قوله في مكان آخر : « وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا وإلا فليترك[٢] » .

أو قوله في مكان ثالث « وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً ، الا أني أنا تصرفت في هذا المعنى تصرفاً لم يتصرف فيه أحد غيري[٣] » وغير ذلك كثير .

---

(١) المثل السائر ١ / ١٣٥
(٢) المصدر السابق
(٣) » » ١ / ١٤١

كما كان يشير في بعض الأحيان الى أديب من أدباء العربية الكبار ، فإذا وضع يده ـ كما يرى ـ على مأخذ وجده عند أحدهم ، أنحى عليه باللائمة ، وصب عليه ما شاء من ألفاظ التجريح والسخرية مما لا ضرورة له بحال .

فمن ذلك ما قاله في حق المعري عند الإشارة الى إعجابه بأبي الطيب ، وتسميته إياه بالشاعر وتسمية غيره باسمه . فقال ضياء الدين : « فياليت شعري ، أما وقف على هذا البيت المشار اليه ، لكن الهوى كما يقال أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة ، وأعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين [1] » .

كما عارض القاضي الفاضل في رسائله ومكاتباته [2] ليظهر تفوقه . وقد كانت شهرة الفاضل حينذاك فوق كل نقد أو تقليد .

واشتهر المثل السائر ، وذاع صيته ، وكثر الحديث حوله ، مما حدا بابن أبي الحديد الى التماس نسخة له ، وما إن وردت عليه في غرة ذي الحجة سنة ٦٣٣ حتى راحت عيناه تطويان سطوره وصفحاته ، وقلمه يندفع في الرد عليه ، حتى أتم ذلك في ثلاثة عشر يوماً مع أشغاله الديوانية كما يقول .

وقد حرص ابن أبي الحديد على رد ما في (المثل السائر) وإظهار الخطل فيه ما وسعه . حتى قال في ذلك : « وقد سميت هذا الكتاب الفلك الدائر على المثل السائر » لأنه شاع من كلامهم ، وكثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر : قد دار عليه الفلك كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته . من ذلك قـــول أبي العتاهية :

إنْ كُنْتَ تَنْشُدُهُمْ فإنَّهُمْ هَمَدُوا ودارَ عَلَيْهِمُ ٱلْفَلَكُ [3] »

---

(١) المثل السائر ١ / ٤١١
(٢) « « ٢ / ٣٧٤
(٣) الفلك الدائر ٣٥ (مطبوع مع الجزء الرابع من المثل السائر)

إذن فابن أبي الحديد شديد الحرص ، ليس على نقد ما في الكتاب والتماس وجه الصواب له ، بل يريد طحنه ومحوه . ترى ما الأسباب التي وصلت بأبي حامد الى هذه المرحلة من الحنق على هذا الكتاب ؟

ويقطع علينا بنفسه طريق التساؤل والتأويل ليقول في مقدمة كتابه : « وقفت على كتاب نصير الدين ابن محمد الموصلي ، المعروف بابن أثير الجزيرة ، المسمى (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول.

« أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر .. وأما المردود فيه فنظره وجدله ، واحتجاجه واعتراضه ، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه مما يعتمد عليه (١) » .

وهكذا يدلنا ابن أبي الحديد منذ البداية ، إلى الميدان الذي سيجول فيه مع ابن الأثير ، إنه جدله واحتجاجه واعتراضه . . بعيداً عن الفن وقضايا الأدب .

وبعد هذه المقدمة ، يبدأ بسرد أسباب حملته على هذا الكتاب فيقول : « فحداني على تتبعه ومناقضته في المواضع النظرية أمور :

— « منها إزراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ، فإن في ذلك ما يدعو الى الغيرة عليهم والانتصار لهم .

— « ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الانسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد .

— « ومنها أنه قد أومأ مراراً في كتابه الى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ، فأردنا أن نعرّفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لا يجلبه الفضل ، ولا يرده النقص .

---

(١) في المثل ٤ / ٣٢

— « ومنها أن جماعة من أكابر الموصل ، قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جداً ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن ، وأوصلوا منه نسخاً معدودة الى مدينة السلام وأشاعوه ، وتـــداوله كثير من أهلها [1] . فاعترضت عليه بهذا الكتاب ، وتقربت به الى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية [2] ، عمر الله بعمارتها أندية الفضل ورباعه ، وأطال بطول بقاء مالكها يد العلم وباعه [3] » .

ولا ينتهي من تعداد ما رأى من أسباب قبل أن يشير كذلك الى نفسه حتى فاق خصمه إذ يقول :

« وكان أكثر قصدي في ذلك ، أن يعلم مصنف هذا الكتاب ورؤساء بلدته ، أن من أصاغر خوّل هذه الدولة الشريفة ـ فالعُجب مبير ولا أنبيء عني فمثلي كثير ـ من إذا ألغز أدرى ، وإذا ضرب أفرى ، وإذا رشق أصمى ، وإذا نكأ أدمى . وأنّ دار السلام ، وحضرة الإمام ما خلت كما تزعم المواصلة ممن إذا سوبق خلّى ، وإذا يوسر فاز بالقدح المعلى ، وإذا خطب خضعت لبراعته المناصل ، وإذا كتب سجدت ليراعته الذوابل ، وإذا شاء علّم الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل » .

« وأن في الأغفال المغمورين من رعاياها من لو هدر لقرت [4] له الشقاشق ، ولو نطق لتجلت بشموسه المهارق [5] ، ولو جرد حسام قلمـــه لقال الملك للسيف أغرب فأنت طالق . فكيف بسدنة كعبتها ، والحافّين بشريف سُدتها ، فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم في حلبة البيان أخجل البروق وسخر بالرياح ، واذا ضرب الأعداء بصارم اللسان قدّ السلوقي المضاعف حتى توقد نار الحباحب في الصُّفّاح [6] » .

---

(١) صورة من الرقي الثقافي وملاحقة المؤلفات في القرن السابع الهجري .
(٢) كان ذلك أيام الخليفة المستنصر بالله ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ منشىء المدرسة المستنصرية ببغداد .
(٣) المثل السائر ٤ / ٣٣ وما بعدها .
(٤) سكنت . ويقال للفصيح : هدرت شقشقته .
(٥) الصحائف . فارسي معرب .
(٦) حجارة عريضة رقيقة .

هذه هي إذن أسباب تأليف (الفلك الدائر) عند ابن أبي الحديد . وكانت على التوالي :

— أسباب اجتماعية من تطاول ابن الأثير على الفضلاء .

— أسباب نفسية من إعجاب ابن الأثير بنفسه بألفاظ صريحة ، أو في عتاب الدهر لغمطه حقه .

— أسباب إقليمية ، من التنافس الذي يقوم عادة بين المدن .

فهل هذه هي كل الأسباب التي دعت ابن أبي الحديد لتصنيف فلكه ؟ إن صح هذا فقد افتقد الدافع الأهم في مثل هذه الشؤون ، ذلك هو الدافع العلمي أو الفني . هذا الدافع الذي كان من نزاهة المقصد ، ونبل الغاية ، أن ينفرد وحده حافزاً الى مثل هذا العمل .

ولكن ابن أبي الحديد لم يكن يحمل مثل هذا الشعور على الإطلاق عند إقدامه على الرد والنقض ، هذا الشعور الذي يصل بكل فكرة الى سدادها ، وكل رأي الى مستقره الصحيح ، فتكون الحقيقة في النهاية هي الثمرة الشهية المنشودة . وهو لم يُخف ذلك على أية حال ، فقد صرح بأنه يبغي محو (المثل السائر) وطحنه وإبادته ، ولم يكن يسعى للوصول مع خصمه الى حقيقة علمية أو فنية ، ولدينا من كتابه ما يوضح قولنا ويؤكده .

فقد بدأ ابن أبي الحديد المسألة الستين بقوله : « قال المصنف في الكلام عن الصناعة المعنوية : وصاحب هذا الفن ، لا يحتاج الى ما ذكره الحكماء في علم المنطق في الشعر ، وقد قرأت كلام أبي علي ابن سينا في المنطق ، وتأملت ما قاله في الشعر ، فوجدته يقول : يورد على مقدمتين ونتيجة . قال : وقد كان ابن سينا ينظم الشعر ، ولا يرتبه عند إفاضته في صوغه بالأصالة ، لأنه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه استحضر المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بالنظم والنثر بعدهما ؛ لم يأت بشيء يُنتفع به ، وإنما هذه فقاقع وألفاظ طوّل القوم بها كتبهم [1] »

(١) ملخص من المثل السائر ٢ / ٥

« أقول : هذه جناية عجب الإنسان بنفسه ، وذلك أن الإنسان يدعوه فرط اعتقاده في نفسه ، وشغفه بما يخطر له ؛ أن يتكلم على قوم لا يعرف أقوالهم ، ولا يحصل معنى اصطلاحاتهم فضلًا عن أن يبلغ رتبتهم ويترقى درجتهم ، الى أن ينقض عليهم فيقع هذا الموقع .

« وليس مراد القوم بالشعر ما يتوهمه ، والذي يريدونه بالشعر يأتي في كل قياس مختلّ يعلم العاقل كذبه ، لكنه يحدث له مع ذلك نوع قبض أو بسط ، أو إقدام أو إحجام ، كما يقال : لا تأكلوا العسل فإنه ثمرة مقيئة ، أو يقال للحلواء الرطبة المزعفرة : لا تأكلها فإنها غائط . فالعقل والحس يكذبان هذا الكلام الذي هو في قوة قياس ، صورته هكذا : كل غائط فهو غير مأكلة . ومع علمه بكذبه ينقبض عن الأكل . وأكثر إقدام الناس وإحجامهم بسبب هذه التخيلات والأوهام . وهي الأقيسة الشعرية التي يذكرونها ، وإنما سميت شعرية لمشابهتها مقاصد الشعراء في تخيلاتهم وتزويقاتهم .

وأما توهمه أن الشاعر يحتاج وقت نظم الشعر الى استعمال مقدمتين ونتيجة ، وقوله إن ابن سينا كان ينظم شعراً ولا يرتب المقدمتين وقت نظمه ؛ فتوهم بعيد وإن كان القوم عنده بهذه الصورة ؛ ويراهم بهذه العين ، فإنه لم يعرفهم (١) .

وفي إصرار ابن أبي الحديد على رده هذا ؛ رغم وضوح وجه السداد في قول ابن الأثير أحدُ تفسيرين :

— إما أنه لا يتم الا بالجدل للجدل ، حتى لا يدع لابن الأثير ما يدعي الصواب المطلق فيه .

— أو على ضعف إحساس ابن أبي الحديد ، بما يتصل بالشعر وحال الشاعر أوقات الإبداع الفني عنده .

---

(١) في المثل السائر ٤ / ١٩٠

وهكذا فإذا افتقر ابن أبي الحديد الى الدافع العلمي النبيل ، فإنه لم يفتقر - وان لم يصرح بذلك - الى الدافع المذهبي المتعصب .

فابن الأثير سني شافعي ، وصل الى منصب الوزارة الخطير لدى الأيوبيين ، ونال الحظوة والتكريم لدى ملوك الموصل ، وانتشار كتابه بهذه الشهرة الطاغية ، التي تسبقه وترافقه وتتبعه ؛ لا شك يسوء شيعياً معتزلياً مثل ابن أبي الحديد ، خاصة وأنها متعاصران ، والمعركة حينذاك على أشدها بين الفئتين ، وقد امتد لهيبها ، حتى أتت على بغداد ومحت الخلافة منها . فكيف لا تكون سبباً لابن أبي الحديد لمحو كتاب يعارضه .

نقول هذا ونحن لا نزال في مقدمة الكتاب ، فاذا اجتزنا ذلك إلى مجلس الرد الذي تصدره ابن أبي الحديد ، لوجدنا أن الحجة هي التي تتردد بينها ، ، والحقيقة المجردة هي وحدها التي تفوز في النهاية ، وإنْ تجاهلها ابن أبي الحديد ، وتجاوز وضوحها أحياناً ؛ فإن ذلك لا يسري على كثير من الحضور ، الذين يهزون رؤوسهم في عدم اقتناع ورضى .

يلف ذلك كله ، روح ابن أبي الحديد الجدلية الكلامية ، وهي لا تصلح بحال للفصل في شؤون الأدب وجوانبه الفنية .

(٢)

بين الصفدي وابن الأثير

إذا كان من أسباب الخصومة بين ابن أبي الحديد وابن الأثير ؛ المذهبية ثم الإقليمية ، وكذلك التنافس الشخصي بين متعاصرين ؛ فإننا سنفتقد ذلك عند الصفدي في خصومته لابن الأثير .

فالصفدي كما يعلن ذلك عنوان كتابه (نصرة الثائر على المثل السائر) يناصر

ابن أبي الحديد ، مع أنه يخالفه في المذهب ، وهو يشير الى ذلك في المقدمة ، بعد أن يشيد بعلم ابن أبي الحديد وقدرته الجدلية « ولكن أدته مواده الغزيرة الى أن اعتزل وتشيع ، وأهمل جانب السنة وضيع (١) » مما يدل على نزاهة الصفدي وبعده عن الهوى ، وسعيه للوصول الى الصواب المجرد .

أما الأسباب التي دعته الى نقد المثل السائر ، والرد على صاحبه ، فلم تخرج عما يلي:

١) أسباب نفسية مما بدا عند ابن الأثير ، من زهو وكبر وإعجاب بالنفس لا حد له « عامله الله بلطفه ، وسامحه بما هزت به نسمات الخيلاء من غصن عطفه . . . فقد توهم أن بدر فضله قد تم وكمل ، وتخيل أن جيد الإنشاء بعده قد عطل وفنه قد خمل . . . ووصف نفسه ولا وصف امرىء القيس لأفراسه ، ومدحها ولا مدح أبي نواس سلافة كاسه، وكرر ذلك فغشى النفوس بذلك الغث ، وزاد حتى رثّ القلق ثوب الصبر لما رث » .

٢) أسباب اجتماعية من تطاول ابن الأثير على أعلام الأدب والإزراء بهم . فقد « ظن أن الله قد حرّم الفصاحة على من يأتي من بعده ، وأن الذين من قبله ، إما شيخ قد خرف في هرمه ، وإما طفل يعبث في مهده . . . خصوصاً القاضي الفاضل . . رحمه الله تعالى ـ فإنه قد عارضه في بعض ما أنشاه ، وعاب عليه ما دبجه ووشّاه » .

٣) أسباب فنية تتعلق بما حواه الكتاب من نصوص ، ومن نظرات في إنشائها وتذوقها ونقدها ، « هذا إلى ما في الكتاب من فلتات عديدة ، واختيارات غير موفقة ولا سديدة ، ونصر باطل وتحليه عاطل ، وترجيح ما ضعف ووهى ، وتوهين ما تحرر وانتهى . . وإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٠ بتحقيق المؤلف

هذا مع اعتراف الصفدي الصريح ، بما في الكتاب من حسنات ، وبما كان يتمتع به من الشهرة الواسعة ، فهو « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه .. واشتهر بين أهل الانشاء .. وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكريم بالإنفاق لا بل ولع الرقباء بالعشاق » كما كان من حسناته « أن واضعه رحمه الله ـ قد جمع فيه بين العلم والعمل » .

ولكن ماذا يقول الصفدي ، بعد أن سبقه ابن أبي الحديد الى مطالعة الكتاب ، والرد على ما جاء فيه « وأي قوادم ينهض بها من جاء بعد هذا المتكلم ، وأي سيف يفري فريه وهو متثلم ... والمعتزلة فرسان المباحث ، وممن توفرت لهم الهمم على الجدل وطاوعتها الدواعي والبواعث .. »

ويجيب نفسه بقوله « وقد ترك الأول للآخر أكثر مما جاء به ، وتفاوتت الأذهان في انتقاد مها الحسن وكواعبه .. » .

فقد أدرك الصفدي أن ابن أبي الحديد ، ابتعد في مناقشته لابن الأثير عن الأدب وقضاياه الأصيلة ، وعن النصوص ونقدها ، وغاص معه في جدل ينسجم مع ما يحمله في فكره وتهواه نفسه « والمعتزلة فرسان المباحث ، وممن توفرت لهم الهمم على الجدل » . لذا فإن الصفدي سيجد الميدان خالياً ، وما يهوى الحديث فيه متروكاً ينتظره ، ولا غرو في ذلك فقد « تفاوتت الأذهان في انتقاد مها الحسن وكواعبه » .

أما طريقته في نقد ابن الأثير ومناقشته ، فهي من خير ما يُتّبع في نقد النصوص وكشف مزاياها ، بيّنها بقوله :

« فإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن .. » مما يبصّر القارىء ، ويفتح ذهنه ونفسه ، ويجعله ـ بهذا النقد التطبيقي ومقارنة النصوص ـ يضع يده على أسرار الجمال ، كما تلوح له نقاط التخلف والضعف .

فلا مجال إذن للمقارنة بين الصفدي وابن أبي الحديد ، فالفارق بينها كبير في الروح والثقافة وزاوية النظر وأسلوب التناول والنتيجة ، إنه باختصار الفرق بين عالم في الشرعيات ، يعتمد المنطق أساساً للمناقشة وأسلوبا لها ، وبين أديب بالفطرة ثم بالتكوين ، يعتمد النصوص أساساً ، والنقد الفني منطلقاً ، والذوق ودقة الحس وسيلة لإدراك الأسرار وتذوقها والانفعال بها ومعها .

وهكذا فان لدينا في الرد على المثل السائر كتابين منفصلين ، لا يلتقيان إلا عند اسم ضياء الدين في مثله السائر .

وأخيراً لا بد من الإشارة الى الأسلوب الذي اتبعه الصفدي في مقدمته هذه ، فقد اعتمد فيها أسلوب النثر الفني المسجوع في تلك العصور . بيد أنه سرعان ما يتنكب ذلك الى أسلوبه المرسل الرقراق ، عندما يغادر هذا المدخل الى بهو الكتاب ولبابه . كما نلمس في هذه المقدمة كذلك ، ميل الصفدي للتعبير بالصور ، عما يريده من مشاعر ومعان .

★ ★ ★